فمهما تعددت الامكنة في المنافي، فإن الحلم يظل يشد الفلسطيني إلى مكان «ـه»، ومهما تراكم عليه الزمن، فإنه يظل يشد أوتار الذاكرة نحو الزمن المفقود، وهو يطمح في استعادتهما معاً: المكان المفقود والزمن المفقود.

ظل المكان المفقود، طويلاً، حلماً بعيد التحقق. وكلما كان الزمن يمضي برتابته، فانه كان ينأى بالفلسطيني بعيداً عن المكان، ويبعد الحلم عن احتمالات التحقق...

لكن التحول في حركة التاريخ الذي صنعه الانسان الفلسطيني بممارسته النضالية، كسر رتابة الزمن، فأصبح الحلم قابلاً للتحقق، إذ أصبح الزمن الفلسطيني يتجه في حركته نحو المكان الفلسطيني المفقود.

وما بين «رجال في الشمس» و «أم سعد»، تكمن شهادة غسان كنفاني. ففي حين غرق الرجال الثلاثة في الرواية الاولى في اوهام المكان البديل لان حلمهم، في زمن الوهم، كان بعيداً عن التحقق. فإن أم سعد، التي تعيش في تفاصيل الزمن الحاضر، المتغير، وتساهم في صنعه، نراها وهي تقترب أكثر من «المكان» ومن تحقيق الحلم.

في «رجال في الشمس» لا يقدم المكان دلالته من ذاته كمكان فحسب، وإنما يكتسب من الزمان دلالات اخرى.

فالصحراء، بامتدادها وفراغها وعريها، بصفرتها الباهتة الموحية، هي مسرح الحدث في زمن الفرار والاستنكاف. ولان المكان يشهد على ذاته في مثل ذلك الزمان، فإن الصحراء تحمل دلالات الموت والضياع، وفي جبروتها تكمن القسوة، ويكمن الموت للرجال الموغلين في جوفها نحو المكان البديل لكي يصنعوا فيه زمناً بديلاً.

هناك، وفي ذلك الزمن، كانت الصحراء جسراً من جسور الوهم ... «إن هذه الكيلومترات المئة والخمسين اشبهها بيني وبين نفسي بالصراط المستقيم الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجرى توزيعهم بين الجنة والنار» (ص ١٠٥). لكن الرجال الثلاثة، عبروا ذلك الجسر نحو الموت المحتم.

ومع أن للصحاري ذات السمات التكوينية المكانية، إلا أن الصحراء، في زمن آخر، تظل قادرة على أن تحمل دلالات اخرى مغايرة...

فالصحراء التي كانت قبراً وجحيماً في الرواية الاولى، تتحول في «ما تبقى لكم» إلى كيان متنفس. فبدلاً من وحشيتها الاولى، نرى أن الكاتب هنا يؤنسنها، فيضع فيها عقلاً ومشاعر، ويكسبها لحماً ونبضاً وعواطف دافئة...

- «رآها الآن لأول مرة **مخلوقاً يتنفس** على امتداد البصر، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد...» (ص ١٦١).

- «وقد أحس بها **جسداً** هائلاً **يتنفس** بصوت مسموع» (ص ١٦١).